

أضواء البيان

@ 445 @ عِلَّايَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ذَهَبُ { ، وقوله : { إِنَّ عِبَادِي لَإِيَّائِي } عِلَّايَهُمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ { فالاستثناء يدل على أن له سلطاناً على من اتبعه من الغاوين : مع أنه نفى عنه السلطان عليهم في آيات أخر .
قوله : { وَلَقَدْ دَخَلْنَا عَلَى إِبْلِيسَ طَنَزَهُ فَاتَّبَعَهُهُ إِلَّا } فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ { . . .
وقوله تعالى حاكياً عنه مقررًا له : { فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْهِكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا } أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي { . . .
فالجواب هو : أن السلطان الذي أثبتته له عليهم غير السلطان الذي نفاه ، وذلك من وجهين . . .

الأول أن السلطان المثبت له هو سلطان إضلاله لهم بتزيينه ، والسلطان المنفي هو سلطان الحجة . فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها ، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان . وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن . . .
الثاني أن اﷻ لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة ، ولكنهم هم الذين سلَّطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في حزبه ، فلم يتسلط عليهم بقوة . لأن اﷻ يقول : { إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } . وإنما تسلط عليهم بإرادتهم واختيارهم . . .
ذكر هذا الجواب بوجهيه العلامة ابن القيم رحمه اﷻ . وقد بينا هذا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) . قوله تعالى : { وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَّا كَانَ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّا نَسْمَعُ أَلَمْ نَقُلْ أَن تَكُونُوا مِّنَ الْكَافِرِينَ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه إذا بدل آية مكان آية ، بأن نسخ آية أو أنساها ، وأتى بخير منها أو مثلها أن الكفار يجعلون ذلك سبباً للطعن في الرسول صلى اﷻ عليه وسلم . بادعاء أنه كاذب على اﷻ ، مفتر عليه . زعماء منهم أن نسخ الآية بالآية يلزمه البداء ، وهو الرأي المجدد ، وأن ذلك مستحيل على اﷻ . فيفهم عندهم من ذلك أن النَّبِيَّ صلى اﷻ عليه وسلم مفتر على اﷻ ، زاعمين أنه لو كان من اﷻ لأقره وأثبتته ، ولم يطرأ له فيه رأي متجدد حتى ينسخه . . .
والدليل على أن قوله : { بَدَّلْنَا آيَةً مَّا كَانَ آيَةً } معناه : نسخنا آية وأنسيناها قوله تعالى : { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا } ، وقوله : { سَنُفْقِرُ تُوكَ فَلَا }

